﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش: 1 - 4]

❁ مُناسبةُ السّورةِ لما قبلَها:

النِّعَم المُتوالية داعية للتَّصديقِ بالآلاءِ المُتضافِرة

هذه السّورةُ شديدةُ الاتّصال بما قبلها؛ لتعلّق الجارّ والمجرور في أوّلها بآخر السّورة المتقدّمة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، أي: لإلْفِ قريش، أي: أهلك اللّه أصحاب الفيل؛ لتبقى قريش[1].

فلمّا ذكرت سورةُ الفيل نِعمَ اللّه تعالى على قريش في إنجائها من عدوِّها الَّذي جاء لهدم البيت الّذي هو أساسُ عزِّهم ومَجدِهم؛ ناسَبَ أنْ يذكر في هذه السّورة نعمةً أخرى لاحقةً يُعايشُها المُخاطبونَ بالوحي؛ لتلتفتَ أذهانُهم إليها ويَستشعروا قيمةَ تلك النِّعمة، وهي اجتماعُ أمرِهم ليتمكَّنوا من الارتحالِ صَيفًا وشِتاءً في تِجارتهم، ولشديدِ المُناسبة بينَ السّورتينِ اعتُبرتا عند بعضٍ سورةً واحدةً، وفُصِلَ بينَهما بالبسملةِ لإظهارِ العِناية بما احتوَتْ عليه كلُّ سورةٍ من السّورتين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِإِيلَٰفِ﴾: (ألِفَ) يدلُّ على انضمام الشّيءِ إلى الشّيءِ، والأشياءِ الكثيرةِ إلى مثلها، قال الخليلُ: ألِفْتُ الشّيءَ وآلَفْتُهُ، والأُلفةُ مصدرُ الائتلاف، وأليفُك الّذي تألفُهُ، وكلُّ شيءٍ ضمَمْتَ بعضَهُ إلى بعضٍ فقد ألّفتَهُ تأليفًا، قال الأصمعيُّ: ألِفْتُ الشّيءَ آلَفُهُ إلفًا، وأنا آلِفٌ ومؤَلِّف[3]، وألِفْتُهُ مِنْ بابِ (عَلِمَ) أنِسْتُ بهِ وأحْبَبْتُهُ، واسْمُ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 412.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 348، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 2022.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألف).

الفاعِلِ أليفٌ مِثْلُ عَليم، وآلِفٌ مِثْلُ عالِم، والجَمْعُ أُلّافٌ مِثْلُ كُفّارٍ، وآلَفْتُ المَوْضِعَ إيلافًا مِنْ بابِ (أكْرَمْت)، وآلَفْتُهُ أُؤالِفُهُ مُؤالَفَةً وإلافًا مِنْ بابِ (قاتَلْتُ) أيْضًا مِثْلُهُ[1]، فهو الائتلافُ، أي: الاجتماعُ مُلتئِمًا، والنّظرُ في باب (الإفعال) إلى نسبةِ الفعل إلى الفاعل أوّلًا ثمّ إلى المفعول، بخلافِ صيغةِ (التّفعيل) فإنَّ النِّسبة فيها أوّلًا إلى المفعول[2]، والمرادُ به في الآية إمّا المعاهدةُ والحِلف، أوْ أُلفةُ الرِّحلتين ومُؤالفتُهما واعتيادُهما، أوْ وقوعُ التألّف والالتئامِ في أمورِهم.

2) ﴿قُرَيْشٍ﴾: (قرش) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الجَمْعِ والتّجمُّع، يقالُ: تقرّشوا إذا تجمَّعوا، وقيل: إنّ قُرَيشًا سُمّيتْ لذلك، ويقالُ: تقارشَتِ الرِّماح في الحَرْب، إذا تداخَلَ بعضُها في بعضٍ[3]، وقُريشٌ: هو النّضرُ بنُ كِنانة، ومَن لم يَلِدْه فليسَ بقُرشيّ، وقيل: قريشٌ هو فهرُ بنُ مالك، وإنّما سُمّيت قُرَيشًا من التّقرُّش، والتّقرُّش التِّجارةُ والاكتساب[4].

3) ﴿رِحْلَةَ﴾: (رحل) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مضيٍّ في سَفَر، يقالُ: رَحَلَ يرحَلُ رِحلةً[5]، ورَحَلَ عن البلدِ رَحيلًا، ويتعدّى بالتّضعيف، فيقالُ: رحّلتُهُ وترحّلتُ عن القوم وارتَحَلْتُ، والرِّحلة بالكسرِ اسمٌ منَ الارتحال، وبالضمِّ الشّيءُ الّذي يُرتَحَلُ إليه، والرَّحلُ: كلّ شيءٍ يُعدّ للرَّحيل، والمرحلةُ: المسافةُ الّتي يقطَعُها المُسافرُ في نحوِ يوم، والجمعُ المَراحِل[6]، ورحلَ عنِ البلد: ظعَنَ عنهُ، وارتَحَلَ وتَرَحَّلَ[7]، والتّحقيقُ أنّ الأصلَ الواحدَ هو الخروجُ في سَفَرٍ معَ أسبابٍ ووسائلَ لا مُطلقًا، وهذا القيد لازمٌ أنْ يُلاحظَ في جميعِ صيَغها ومَواردِ استعمالها[8]، والمراد بالرِّحلة الشّتويَّة والصَّيفيَّة في الآية السّفرُ بقصدِ التِّجارة إلى اليمَن شِتاءً، وإلى الشّام صَيفًا.

4) ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾: (شتو) أصلٌ واحدٌ لزمانٍ منَ الأزمنة، وهو الشِّتاء، خلافُ الصَّيف،

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ألف).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 94.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرش).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 225.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحل).
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير: (رحل).
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (رحل).
(8) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 86.

قالَ الخليل: الشِّتاءُ معروفٌ، ويقالُ: أشتى القومُ إذا دَخَلوا في الشِّتاء، وشَتَوا إذا أصابَهُم الشِّتاء[1]، وقيل جمع (شتوة)، ويُقال: إنّه مفردٌ علَمٌ على الفَصل، ولهذا جُمِعَ على الأشتية، واختُلف في النِّسبة فمَن جعلَهُ جَمْعًا قالَ في النِّسبة (شتويّ) ردًّا إلى الواحد، ومَن جعلَهُ مُفردًا نسبَ إليه على لفظِهِ فقال: شتائيٌّ وشِتاويٌّ[2]، والفعلُ شَتا يَشتو، ويومٌ شاتٍ ويومٌ صائفٌ. وعن ابن الأعرابيّ: الشِّتا الموضِعُ الخَشِن، والشِّتا: صدرُ الوادي[3]، قال ابن عاشور: "والشِّتاء: اسْمٌ لِفَصْلٍ مِنَ السَّنَةِ الشَّمْسيَّةِ المُقَسَّمَةِ إلَى أرْبَعَةِ فُصولٍ، وفَصْلُ الشِّتاءِ تِسْعَةٌ وثَمانونَ يَوْمًا وبِضْعُ دَقائِقَ، مَبْدَؤُها حُلولُ الشَّمْسِ في بُرْجِ الجَدْيِ، ونِهايَتُها خُروجُ الشَّمْسِ مِنْ بُرْجِ الحوتِ، وبُروجُهُ ثَلاثَةٌ: الجَدْيُ، والدَّلْوُ، والحوتُ. وفَصْلُ الشِّتاءِ مُدَّةُ البَرْدِ[4]، والمرادُ بِهِ في الآية: الفصلُ المعروفُ بالبَرْد.

5) ﴿وَٱلصَّيْفِ﴾: الصَّيف يدلّ على زمانٍ، وهو الزَّمانُ بعدَ الرَّبيع الآخِر[5]، والصّيفُ جمعُهُ صُيوف، ويومٌ صائفٌ وليلةٌ صائفةٌ[6]، والصَّيف: واحدُ فصولِ السَّنة قبلَ القَيظ[7]، قال ابنُ عاشور: "والصَّيْفُ: اسْمٌ لِفَصْلٍ مِنَ السَّنَةِ الشَّمْسيَّةِ، وهوَ زَمَنُ الحَرِّ، ومُدَّتُهُ ثَلاثَةٌ وتِسْعونَ يَوْمًا وبِضْعُ ساعاتٍ، مَبْدَؤُها حُلولُ الشَّمْسِ في بُرْجِ السَّرَطانِ ونِهايَتُهُ خُروجُ الشَّمْسِ مِنْ بُرْجِ السُّنْبُلَةِ، وبُروجُهُ ثَلاثَةٌ: السَّرَطانُ، والأسَدُ، والسُّنْبُلَةُ"[8]، والمرادُ بِهِ في الآية إمّا زمنُ الرَّبيع أوْ زمنُ القَيْظ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ نعمةَ المؤالفة الّتي امتنَّ اللّه تعالى بها على قريش، الّتي كانت لهم خصبًا وخيرًا عميمًا، في رحلة الشّتاء إلى اليمن، والصَّيف إلى الشّام، الّتي تُمثِّل المنّة الإلهيّة الّتي أصابت قريش وعمَّتهم، بما لم يكن لسائر العرب، وإنّما اكتسبوا ذلك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شتو).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (شتو).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شتو).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 557.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صيف).
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير: (صيف).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (صيف).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 557.

الفضلَ بما كان لهم من الجوار العظيم لبيت الله الحرام، ويترتّب على ذلك الامتنان أن يشكر المُخاطَبون من قريش ربّهم على ما أولاهم ورعاهم بخيرٍ خُصّوا به، فجاء الأمر الإلهيُّ بوجوب عبادة الله تعالى، الّذي هو ربُّ البيت وراعيه، الّذي أطعم قريشًا من جوعٍ مشاهدٍ في سائر القُرى، وآمنهم من خوفٍ يتخطّف النّاس مِن حولهم، فالعبادة واجبةٌ في حقِّ كلِّ عبدٍ، فكيف بمن منَّ الله عليه بالنِّعم العظيمة، وأعطاه المنن الجزيلة، فإنَّ العبادةَ في حقِّه أوكد، والمعصيةَ في شأنه أشدّ.

التّذكيرُ بالنِّعَم العظيمة توطئةٌ للأمر بالعِبادة الجليلة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع اللّام ودلالتها:

تحتمل اللّام في قولِهِ تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾؛ أن تكون لامَ العاقبةِ، وذلك على جعل ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ مُتعلِّقًا بقولِهِ في السّورة السّابقة: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: 5]، واعتُرِضَ بأنَّهم جُعِلوا كعصفٍ مأكولٍ لكُفرهم، ولم يُجعلوا كذلك لتألُّف قُريش، والرّدُّ على الاعتراض بأنّهم أُهلِكوا لكفرهم، ولمّا أدَّى إهلاكُهم إلى أنْ تألفَ قريشٌ؛ قيلَ: (أُهلِكوا لإيلافِ قُريش)[1]، وتحتمل أن تكون لامَ التّعليل؛ فتكون متعلِّقةً بقولِهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ [الفيل: 5]، لكنَّها علّةٌ ناقصةٌ؛ إذ العلّةُ في إهلاكِ الحبشةِ كفرُهم ونيّتُهم هدمَ البيتِ[2]، وتحتمل أن تكون لامَ التّعجيبِ، والمتعلَّقُ محذوفٌ، أي: اعجَبوا لإيلافِ قُريش[3]، وتحتمل أن تكون اللّام بمعنى (إلى)، وذلك أنَّ الله تعالى ذكَّر أهلَ مكّةَ عظيمَ النِّعمة عليهم فيما صنعَ بالحبشة، ثمَّ قال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾؛ كأنَّه قالَ: ذلك إلى نعمةٍ عليهم في رِحلةِ الشِّتاءِ

ثـــراءُ المَـعـاني وتنوّعُها راجعٌ لاخـــتـــلافِ مُتعلَّقات المَباني

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 337.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 445.
(3) المظهريّ، تفسيره: 10/ 346.

والصَّيف، وتقول: (نعمةٌ إلى نعمةٍ، ونعمةٌ لنعمةٍ) سواءٌ في المعنى[1]، والأظهر أنَّ (اللّام) للتّعليل؛ سواءٌ تعلّقَ الجارُّ بما قبلَهُ أوْ بما بعدَهُ أوْ بمحذوفٍ؛ لأنَّ المرادَ تذكيرُهُم بالنِّعَم المُتلاحِقةِ عليهم أوْ تعليلُ الأمرِ بالعبادة للّه وحدَهُ، والغرضُ من التّعليلِ بالنِّعمة التّعجيبُ من سوءِ مُقابلتِهم للنِّعَم المُتلاحقةِ بالإشراكِ والكُفران، فالتّعجيبُ مِن لوازِمِ التّعليل بقرينةِ الواقعِ الخارجيّ.

بيان متعلَّق (اللّام) تقديمًا وتأخيرًا:

تحتمل اللّام في قولِهِ تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، أن تتعلَّق بالسّورةِ الَّتي قبلَها، والمعنى: (فجعَلَهم كعصفٍ مأكولٍ لألفِ قُريشٍ)، أي: أهلكَ اللّه أصحابَ الفيلِ لتبقَى قريشٌ، وما ألِفَوا من رحلةِ الشِّتاءِ والصَّيف، أي: ليَتسامَعَ الناسُ ذلك الإهلاكَ لأجلِهم فيحترموهم فضلَ احترامٍ حتَّى ينتظِمَ لهم الأمنُ في رحلتَيهم، فلا يجترئَ عليهم أحدٌ[2]، ويحتمل أن يكون المتعلَّق محذوفًا، وتقديره: اعجبوا، فتكون اللّام للتّعجُّب؛ والمَعنى: (اِعجَبوا لإيلافِ قُريشٍ)[3]، "أوْ أنَّه مُضمَرٌ تقديرُه: (فَعَلْنا إهلاكَ أصحابِ الفيلِ؛ لإيلافِ قُرَيشٍ"[4]، ويحتمل أن يكون المتعلَّق متأخِّرًا، على تقديرِ: (فليَعبُدوا ربَّ هذا البيت لإيلافِ قُريش)، أي: ليجعَلوا عبادتَهم شُكرًا لهذهِ النِّعمة، واعترافًا بها، ويَنبني على هذا القولِ أنَّ تقديم المجرورِ للاهتمام لا للحصرِ، ولا يمنَعُ (الفاءُ) عملَ ما بعدَها فيما قبلَها في مثلِهِ كقَوْله تَعالَى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ [المدّثر: 3][5]، ويصحّ تعلُّقُ (اللّام) بمجموعِ الأمرَينِ معًا؛ إذ الإهلاكُ والأمرُ بالعِبادة صالحانِ مَعلولينِ

الـوَحـدةُ المَوضوعيَّة سرُّ الاخـتـلافِ في تحديدِ المُتعلَّقات اللَّفظيَّة

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 337، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 296.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 337، والمظهريّ، تفسيره: 10/ 346.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 445.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 11/ 111.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 337، وحاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 20/ 443، والمظهريّ، تفسيره: 10/ 346.

للإيلافِ ولوازمِهِ من الإطعامِ والأمْنِ، ولعلَّه لهذهِ الإرادةِ تقدّمَ الجارُّ في افتتاحِ السّورة؛ ليكونَ مُتعلِّقًا بالفعلين ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ [قريش: 5] و﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ معًا.

نكتة تقديم العامل على معموله:

التّوطئة بالامتنان للأمر بالعبادة من أساليب القرآن

افتتحَ النَّظمُ الكريمُ بالجارِّ والمَجرورِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، وهو مُقدّمٌ على عاملِهِ الفعليِّ - على أحد الأقوال -، بينَهُ وبينَ عاملِهِ فصْلٌ طويلٌ؛ للتَّشويقِ إلى معرفةِ المتعلَّق وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾[1]، كما أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور على متعلَّقِه اهتمامًا بالمقدَّم واعتناءً ببيانِهِ؛ للتَّذكيرِ بالنِّعمة وما يَنبغي للمخاطبينَ إزاءَ تلك النِّعمة من التزامٍ بمضمونِ المُتعلَّق[2]، فهي توطئةٌ بذكر الامتنان على العباد؛ ليقع الأمرُ بالعبادة موقعًا راسخًا في القَبول لدى العقلاء.

توجيه القراءاتِ القرآنيّة:

منّةُ الألفة توجِبُ شُكرَ النِّعمة

قرأ الجمهورُ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ بالياءِ مَهموزًا مصدرُ (آلفَ) الرّباعيّ، وهو من المُتعدّي بالهمزةِ، وقرأ ابنُ عامر: ﴿لِإِيْلَٰفِ﴾ بدونِ ياءٍ على وزنِ (فِعال) كـ(كِتابٍ) مصدرُ (ألِفَ) الثّلاثيّ، يقالُ: ألِفَ الرّجلُ الأمرَ إلفًا وإلافًا، "فأمّا قراءةُ ابنِ عامرٍ ففيها وجهان؛ أحدُهما: أنَّه مصدرٌ لـ(ألِف) ثلاثيًّا، يُقالُ: ألِفْتُه إلافًا، نحو: كَتبْتُهُ كِتابًا، ويُقال: ألِفْتُه إلْفًا وإلافًا، والثّاني: أنَّه مصدرُ (آلَفَ) رُباعيًّا، نحوُ: قاتَلَ قِتالًا"[3]، وقرأ أبو جعفر: ﴿لِأِيلَٰفِ﴾ بوزنِ (حِمْل)، وعلى هذه القراءةِ فهو مصدرُ المجرَّد[4]، والقراءات جميعها متحقِّقة المعنى، متآلفة الدّلالة، فهو إلْفٌ متحقِّقٌ بإلافٍ من اللّه تعالى، ففيها معنى اللُّزوم، ومعنى الإلزام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 554.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 359.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 11/ 114.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 403، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 351.

نوع الإضافةِ ودلالتها:

وَحدةُ الكَلمة أساسٌ للاجتماع والارتقاء

أضافَ النّظمُ الكريمُ المصدرَ (إيلاف) إلى ﴿قُرَيْشٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، للدّلالة على التّعيين والتّعريف؛ لأنَّ إضافةَ النّكرةِ إلى المعرفة دالّةٌ على التّشخيص والتّعيين، كما أنَّ الإضافةَ تحتملُ أنْ تكون من إضافةِ المصدرِ لفاعلِه، أي: ليألفَ قريشٌ ويلتئمَ أمرُها أوْ لتألفَ قريشٌ رحلةَ الشّتاء والصَّيف[1]، ففيها معنى اللُّزوم لهذه المنّة، أوْ من إضافةِ المصدرِ لمفعولِه، أي ليُؤلفَ اللّه قريشًا ويَجمَعَ أمرَها أوْ ليُؤلف اللّه قريشًا رِحلتَيها؛ ففيها معنى الإلزام لهذه المنّة.

نكتةُ التّعبير باسم القبيلة ﴿قُرَيْشٍ﴾:

في مَنحِ القوَّة إتمامٌ للنِّعمة

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسم القبيلةِ ﴿قُرَيْشٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾؛ للدّلالة على مكانتها الكبيرة وقوّتِها بينَ قبائلِ العرَب، وتلك نعمةٌ توجبُ منهم عِبادةَ اللّه تعالى المانحِ لهم ذلك؛ إذ أصلُ (قُرَيش) منقولٌ من تصغيرِ (قَرش) بالفتح، وهو سمكةٌ عظيمةٌ، أُطلِقَ على فِهْر بْن مالِك بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنانَة، - على قول جمهورِ النَّسّابين -، وقيل: إنَّ قُرَيْشًا لَقَبُ النَّضْرِ بْنِ كِنانَةَ[2]، تشبيهًا لهم بها بالقوَّة والعُلوِّ؛ فإنَّها سمكةٌ تأكُلُ ولا تُؤكَلُ، وتَعلو ولا يُعلَى عليها، فيكونُ العلَمُ حقيقةً عرفيَّة في القبيلةِ المعروفة بنقلِ اسمِ المشبَّه به وإطلاقِه على المشبَّه، وليس استعارةً، وقيلَ مأخوذٌ من (قريش) بمعنى (الكَسْب)؛ لأنَّهم كسّابونَ في تجارتِهم ولم يكونوا أهلَ زَرْعٍ ولا ضَرْعٍ[3]، وذهبَ قومٌ إلى أنَّه من القَرش وهو الجمعُ من هاهنا وهاهُنا، وسُمّيت قُريشٌ قريشًا لتقرُّشِها، أي لتجمُّعِها إلى مكَّةَ من جَوانبِها، وكانوا مُتبدِّدينَ في الأرض، جمَعَهم قصيُّ بنُ كِلاب في

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 340.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 556.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 446.

الحَرَم، ولذلك سُمّي مُجمِّعًا[1]، وتصغير ﴿قُرَيْشٍ﴾ للتّعظيم بمَعونةِ المقام ونظرًا إلَى المَرام[2]، ولا يَبعُدُ أنْ يكونَ تصغيرُ العَلَم دالًّا على التَّقليل باعتبارِ أوَّل مبدأِ تسميتِهم بذلك، ثمَّ لمّا عَظُموا وكَثُروا صارَ دالًّا على التَّعظيمِ الطّارئ.

دلالةُ المَوقِعِ الإعرابيّ لقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾:

بيانُ النِّعمة لتَعظيمِ المِنَّة وتفخيمُ المطلوبِ

قوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾ يحتمل أن يكون عطفَ بيانٍ لقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، وهو "مِنْ أُسْلوبِ الإجْمالِ فالتَّفْصيلُ؛ لِلْعِنايَةِ بالخَبَرِ؛ ليَتَمَكَّنَ في ذِهْنِ السّامِعِ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36 - 37] حِكايَةً لِكَلامِ فِرْعَوْنَ[3]، ويَحتمِلُ أن يكون بدَلًا وتأكيدًا لفظيًّا[4]، ورجّح السّمينُ البيانَ بقولِه: "﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ مُؤَكِّدٌ للأوَّلِ تأكيدًا لفظيًّا؛ ولذلك اتّصَلَ بضميرِ ما أُضيفَ إليه الأوّلُ؛ كما تقولُ: لِقيامِ زيدٍ لقيامِه أكرمْتُه، وأعرَبَهُ أبو البَقاءِ بدَلًا، والأوَّلُ أوْلى"[5].

فائدة تَكرارِ لفظ الإيلاف:

العينيَّةُ دالّةٌ على النِّعمةِ العليَّة

كرّرَ النّظمُ الكريمُ لفظَ (الإيلاف) في قولِه تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾؛ تَفخيمًا لِأمْرِ (الإيلافِ) وتَذْكيرًا لِعَظيمِ المِنَّةِ فيه[6]، وتشبيهًا في كونِهِ من أجلِّ النِّعَم، وترغيبًا عَلَى عبادةِ الربِّ المُنعِم، وجهُ التَّفْخيم لما فيه من الإبهامِ أوَّلًا ثمَّ التّبيينِ ثانيًا[7].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 351.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 446.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 556.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 340، والسّمين، الدّرّ المصون: 11/ 116، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 622.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 11/ 116، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 622.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 296، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 360.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 447.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾:

أضافَ النّظمُ الكريمُ (الإيلاف) إلى ضميرِ الغيبةِ العائدِ إلى (قُرَيش) في قولِه تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ﴾؛ للدّلالة على رَبطِ الإيلاف الثّاني بالإيلافِ الأوّل، فيكون إظهارًا لاختصاصِهم بالإيلافِ دونَ مَن عداهُم، وليُبرزَ ذلك الإيلافَ المنسوب إليهم بطريقِ العلَميَّة أولًا والإضمارِ ثانيًا، فيتقرّرَ في الأذهان قيمتُهُ وأهميّتُهُ، وما ينبغي عليهم إزاءَه من شُكر النِّعمة بالتّوحيدِ الخالِصِ لله تعالى.

الإظهارُ والإضمار، يُلفتانِ الانتباهَ لقيمةِ الاتِّجار

دلالةُ الموقعِ الإعرابيّ للفظِ ﴿رِحۡلَةَ﴾:

يحتمل لفظ ﴿رِحۡلَةَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ أنْ يكونَ منصوبًا بالمصدرِ ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ كما هو الظّاهرُ[1]، أو بمصدرٍ محذوف تقديرُهُ: (ارتحالُهم رِحلةَ)، أوْ بنَزعِ الخافضِ[2]، فهو مَفْعولٌ به إنْ كانَ (الإيلاف) من (الأُلفة)؛ إذِ الظّاهر أنَّ الإيلافَ مصدرُ (آلفتُ الشّيء) من الإفعال، أوْ منصوبٌ بنزعِ الخافضِ إنْ كان بمعنى (المُعاهدة)، لما قيلَ إنَّ (الإيلافَ) عهودٌ بينَهُم وبينَ المُلوك؛ فكانَ (هاشمٌ) يوالِفُ إلَى مَلِك الشّام و(المطَّلِب) إلَى كِسرى، و(عبدُ شَمْسٍ ونوفلٍ) يوالِفان مَلِكَ مِصرَ، ومعنى يوالِفُ: يُعاهِدُ ويُصالِحُ، والظّاهرُ أنَّه من الأُلفة بمعنى (الإيناس) ضدُّ الإيحاش[3].

العاملُ في (رحلة) المصدر لمعنى الإيناس والائتلاف

نكتةُ إفراد ﴿رِحۡلَةَ﴾ دونَ تثنيتها:

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿رِحۡلَةَ﴾ مفردًا في قولِه تعالى: ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ معَ أنَّهما في الواقعِ رِحلتانِ؛ رحلةٌ في

البشارةُ بحُلولِ النِّعَم، عندَ ظُهورِ النّبيِّ المُكرَّم

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 353.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/ 302.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 444، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 557.

الشّتاء ورحلةٌ في الصَّيف؛ فعدلَ عنه إلَى ﴿رِحْلَةَ﴾ بالإفراد؛ "لأمنِ الالتباس وظُهورِ المَعْنَى مع الإشارَة إلَى أنَّها واحدةٌ حُكمًا؛ إذ الغرضُ بها التِّجارةُ"[1]، وفي الإفراد لطيفةٌ، وهي الإشارة إلى أنَّ الرحلة تشمل كلَّ رحلةٍ - كما هو شأنُ المصادرِ وأسماءِ الأجناس - "إشارةً لهم بالبشارة بأنَّهم يتمكَّنونَ عن قريبٍ من الرِّحلة إلى أيِّ بلدٍ أرادوا؛ لشُمولِ الأمنِ لهُم وبهِمْ جميعَ الأرض بما نشَرَه الله ﷻ من الخيرِ في قلوبِ عبادِهِ في سائر الأرضِ بواسطةِ هذا النَّبيِّ الكريم، الَّذي هو أشرَفُهم وأعظَمُهم وأجلُّهم وأكرَمُهم"[2].

نوع الإضافة ودلالتها:

إضافةُ الرِّحلة للزَّمان تحتمل الابتداء والاستغراق والبعضيَّة

في إضافة المَصدر ﴿رِحْلَةَ﴾ إلى ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ مَجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ المُرتَحِلَ على الحقيقة هم النّاس لا زمان الشِّتاء والصَّيف، أي: رحلة النّاس في زمان الشّتاء والصَّيف، وذلك "مِنْ إضافةِ الفعلِ إلى زمانِهِ الَّذي يقعُ فيه، فقد يكونُ الفعلُ مُستغرقًا لزمانِه مثلَ قولكَ: (سَهَرُ اللَّيْلِ)، وقد يكونُ وقتًا لابتدائِه مثلَ (صَلاةِ الظُّهْرِ)"[3]، كما أنَّه قد يكون في وسط الزّمان دون استغراقٍ، كما دلّتِ الإضافةُ على العهدِ بالنّسبة للمُخاطبين؛ فما أنْ يُذكرَ هذا التّركيب الإضافيُّ حتّى يتبادرَ إلى أذهانِهم الرِّحلتانِ المَعروفتانِ لدَيهم.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾:

الشِّتاء نعمةٌ من نعم الله على قريش فهم يأخذون خيرَه ويذرون برودته

عرّف النّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ للدّلالة به على الفصلِ المعروفِ المعهودةِ حقيقتُهُ بالبُرودة، وتعريف لفظ (الصَّيف) للدّلالةِ به على الفصلِ المعلومِ حقيقتُهُ بالحَرارة أوْ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 444، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 353، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 557.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 265.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 557.

بالاعتدال الرّبيعيّ؛ إذ يُفرِّقُ العربيُّ بينَ الصّيف و(القَيظ) وهو شدّةُ الحرِّ، والغرضُ من تعيينِ الزَّمن وتشخيصِهِ بيانُ أهميَّة الاهتداء إلى الارتحالِ في الوقتِ المُناسِبِ دونَ تعرُّضٍ للضّرَرِ ممّا يوجِبُ مزيدَ الشُّكر، وفي ذلك تذكيرٌ لهُم بكمالِ النِّعمة وتمامِها؛ إذ رحلتُهم التِّجاريّةُ لا تجلِبُ عليهم ضَرَرًا مَناخيًّا.

دلالةُ العطف بين الزّمانين:

عطفَ النّظمُ الكريمُ لفظَ (الصّيف) على ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾؛ للدّلالة على الجَمع والاقتران بينَ الرِّحلتين، والاعتياد والاستمرار دونَ هَوادةٍ ولا توقُّفٍ.

نكتة المجاز بالحذف:

الإيجاز مقدّمٌ على الإطناب إلّا لنُكْتةٍ

هنالك مُضاف مَحذوف في المعطوف ﴿وَٱلصَّيۡفِ﴾ والتَّقدير: (وَرِحْلَةَ الصَّيْفِ)؛ لِظُهورِ أنَّهُ لا تَكونُ رِحْلَة واحِدَة تُبْتَدَأُ في زَمانَيْنِ، فتَعَيَّنَ أنَّهُما رِحْلَتانِ في زَمَنَيْنِ"[1]، والغرضُ من الحذفِ الاختصارُ، وبيانُ أنَّهما رحلةٌ واحدةٌ في الحقيقة؛ لأنَّ مَقصِدَهما التِّجارة.

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ على (الصَّيف):

قُدِّم ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ على (الصَّيف)؛ للإيماءِ إلى أنَّ رحلة الشِّتاء أقربُ إلى نفوسهم من رحلة الصَّيف، وذلك لقُرب اليمن مقارنةً بالشّام، ولأنَّ فصل الشّتاء ألطفُ من الصَّيف.

بلاغة فنِّ الطِّباق:

الإيماء إلى الاستقرار في مكّة في فصول الاعتدال

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ عن فصلَي البُرودة والحرارة بأسلوبِ الطِّباق في قولِهِ تعالى: ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾؛ للدّلالة على استمرارِ تجارتِهِم، وأنَّهم لا يتوقّفونَ عنِ الارتحالِ طلَبًا للرِّزق مهما تفاوتَتِ الأزمانُ وتباينَتِ الأوقاتُ، ولبيان أنّ الرِّحلتين جاءتا في فصلين متقابلين لا يلتقيان بل يفصل بينهما فصلان آخران وهما الرَّبيعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 557.

والخريف، وهو ما يعكس التَّنوعَ في الارتحال، وفي ذلك إيماء إلى نعمة الاستقرار في فصلَيِ الاعتدال وهما الرَّبيع والخريف.

نوع الفاءِ ودلالتها:

كلُّ النِّعَم تستوجِبُ العِبادة العِبادة ولا سيَّما إيلافُ التِّجارة

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمال (الفاءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدّلالة على كونِهِ جوابَ شَرطٍ مفهومٍ من نَظْمِ الكَلام، فتقديم المعمول وهو ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ على العامل وهو ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ جعله شرطًا لعامله، فما قبل الفاء في قوّة الشَّرط، أو أن يُجعل الشَّرط مقدّرًا يدلُّ عليه فحوى الكلام، فنِعَمُ اللّه على قريش لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لأجلها فليعبدوه لأجل هذه النِّعمة الظّاهرة، وتحتمل أن تكون الفاء للتّفريع على فعل تعجُّبٍ محذوف، أي: تعجَّبوا للإيلاف فليعبدوا، وإنْ كانت (لامُ) ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ مُتعلِّقةً بما قبلَهُا فالفاءُ للسّببيَّة[1].

نكتة التَّعبير بصيغة (اللّام) الدّاخلة على الفعل المضارع:

استمراريَّةُ الرِّحلاتِ التِّجاريَّة تَقتضي استمراريَّةَ الحالةِ التَّعبُّديَّة

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) في قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدّلالة على الأمرِ المُفيد للوُجوب، وذلك لأنَّهم كانوا يعبدونَ الأصنام ويتقرَّبون بها إلى اللّه، فأُمِروا بعبادةِ اللّه تعالى وحدَهُ؛ لأنّ نعمةَ الإيلاف عنايةٌ ربانيّة وليست فعلًا لآلهتهم الجامِدة، وإنَّما عدلَ النّظم عن الأمر بالصّيغة (فاعبدوا) إلى الأمرِ باللّام ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾؛ للدّلالة بدخولِهِ على المضارع على الاستمرارِ في العِبادة، فيكونُ الأمرُ متحقّقًا معَ دلالةِ الاستمرارِ معًا؛ والسِّرُّ في ذلك أنَّ الإيلافَ نعمةٌ دائميّةٌ، والرّحلتانِ مُستمرّتان دائمتان؛ فالمُناسِبُ عندَ الأمر بالعبادة أن يكونَ مُستمِرًّا متجدِّدًا تجدُّدَ رِحلتَيهما واستمرارَهما.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 800، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 586، والسّمين، الدّرّ المصون: 11/ 112، والمظهريّ، تفسيره: 10/ 346، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 354، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 551، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 555.

دلالةُ استعمال مفردة العبادة:

العِبادةُ الحقَّة تتوجَّهُ لصاحبِ المِنَّة بالتّوحيد والطّاعة

جاء التَّعبيرُ بفعلِ (العِبادة) في قولِه تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدّلالة على غايةِ التَّذلُّلِ والخُضوع مع الطّاعة والانقيادِ للأوامرِ الإلهيَّة، ولمّا كانت الأصنامُ المعبودةُ عاجزةً عن النَّفع والضّرِّ والأمر والنّهي، ففي فعل الأمر بالعبادة تعريضٌ بعُقولهم الّتي رَضيَت بعبادةِ مَن هذا عَجزُهُ الواضحُ الظّاهر، والعبادة "الّتي أُمِروا بها عبادةُ اللّه وحده دونَ إشراكِ الشُّرَكاءِ معهُ في العبادَةِ؛ لِأنَّ إشْراكَ مَنْ لا يستحِقُّ العِبادَةَ مع اللّه الّذي هوَ الحَقيقُ بها ليسَ بعِبادَةٍ"[1]، فتضمّنت مفردةُ العبادةِ أمرين، التّوحيد، والطّاعة، أي: الإيمان وعمل الصّالحات.

تعيين مَرجِعِ الضَّمير ودلالته:

خصوصُ النِّعمة لا يقصر شكرَها على المتعيّن ذكره

يرجع ضميرُ الجَمع في قولِه تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدّلالة به على أفرادِ القبيلة المفهومةِ من ذكرِ ﴿قُرَيْشٍ﴾؛ إذ هو علَمٌ منقولٌ للدِّلالة على كلّ مَن انتسبَ إلى جدِّهم الأعلى، والإيلافُ والرِّحلتان وإنْ قام به بعضُهُم إلّا أنَّ الكلَّ مُنتفعون بخيراته الوَفيرة، ومن ثمَّ عادَ إلى قُريش بأكملِها، ولا يلزَمُ من هذا أنْ يكون الأمرُ بالعبادة مختصًّا بقُريش دونَ مَن سِواها من العرب والنّاس أجمعينَ، إلّا أنَّ خُصوصَ النِّعمة المذكورة توجِبُ على أهلِ قريشٍ خاصّةً الالتزامَ بالأمر؛ لأنَّهم المُنتفعون بتلك النِّعَم بشكلٍ ظاهِر، فهو تصريحٌ بالأمر بالعبادة في حقِّ قريش، وإيماءٌ إلى غيرِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بلَفظ الرّبوبيَّة:

المُستحِقُّ للعِبادة هو القائمُ بالرِّعاية والمعتني بأمور عباده

جاء التّعبيرُ بلفظِ (الرَّبِّ) دونَ الاسمِ العلَمِ الجليل (اللّه) في قولِه تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؛ لما يومئُ إليه لفظُ الرَّبِّ من استحقاقِ الإفرادِ بالعِبادة دونَ شَريك؛ إذ تعليقُ العبوديَّة بكونِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 560.

ربًّا يُربّي المخلوقاتِ ويَعتني بها يدلُّ على أنَّه المُستحِقُّ للعِبادة دونَ الأصنام الَّتي لا تعقِلُ شَيئًا، إذ تعليقُ الحُكم بالمشتقِّ يدلُّ على عليَّة المَأخَذِ فيه[1]، كما دلّت الرُّبوبيَّة على رعاية اللّٰه تعالى لبيته، وحفظه من شرِّ الأعداء، كما دلّت عليه السّورة المتقدِّمة في التَّرتيب المصحفيِّ، كأنّه قيل: اعبدوا الرَّبّ الَّذي دفع عن البيت الحرام وعنكم شرَّ مكائد الأعداء، ولا تُشركوا معه أصنامًا لم تدفع عنكم شرًّا ولا كيدًا.

دلالةُ الإضافةِ إلى اسمِ الإشارة:

تحديدُ المَعبود لتحقيقِ المَقصود

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّبِّ) إلى اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدّلالة على تعيينِ الرَّبِّ تعيينًا دقيقًا، وتمييزِهِ عن سائرِ الأربابِ الباطِلة؛ إذ الإضافةُ إلى اسمِ الإشارة تحقِّقُ التَّمييزَ الحسيَّ المُشاهَدَ المُبصَر، وذلك يتناسَبُ مع الدِّلالات العهديَّة الواردةِ في السّورةِ المُتوافقةِ معَ المَألوف المُعتاد.

دلالةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ القَريب:

التَّمييزُ بالإشارَة يُغني عن التَّعريفِ بأيَّةِ عِبارة

استعمل النَّظمُ الكريمُ اسم الإشارة القريبِ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدّلالة على استحضارِهِ استحضارًا تامًّا مُشاهَدًا مَحسوسًا مُبصَرًا لا يحتاجُ إلى تعيينٍ وتوضيحٍ، حتَّى صارَ مُتميِّزًا عمّا عداه مِن بُيوت العِبادة المُنتشِرة في أحياءِ العَرب وبِقاعها، كما أنَّه "عبَّر عنها بالإشارة تعظيمًا إشارةً إلى أنَّ ما تقدَّم في السّورة الماضية من المُدافعة عنهُم معروفٌ أنّه بسببِهِ لا يحتاجُ إلى تصريح، وأنَّ ذلك جعلَهُ مُتصوّرًا في كلِّ ذهنٍ حاضِرًا مُشاهدًا لكلِّ مُخاطَب، وفي هذا التَّلويحِ منَ التَّعظيمِ ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 560.

ليس للتّصريح"[1]، وإيثارُ اسمِ الإشارة القريب دونَ البعيد؛ "لأنَّهُ بذلكَ العهدِ كان كالحاضرِ في مقامِ الكلامِ"[2].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾:

عرّفَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾؛ للدّلالة على العَهْد؛ إذ تعاهدَ العربُ على إطلاقِ لفظ (البيت) على الكَعبة، ثمَّ صار هذا التَّعاهُدُ علَمًا بالغلبة عليها[3]، كما في لفظ (الكتاب) على كتابِ سيبويهِ.

معهوديَّة البيتِ العَتيق تتناسَقُ مـعَ معـهـوديَّة الحِلْف الوَثيق

نكتة استعمال مفردة ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾:

آثر النّظمُ استعمالَ مفردة ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ في هذا السّياق وهي دالّة على الكعبة، للإشارة إلى أنَّ نِعمتَي الأمنِ والرِّزق الوفير إنَّما حصلَتا لقريش بسببِ مَكانةِ البيت وأهميَّتِه في نفوس العربِ جميعًا، ففيهِ تنويهٌ بقيمةِ البيت الَّذي وضعَه اللّه ليكونَ مصدرَ خيرٍ ونفعٍ لهُم، فيكونُ تعريضًا بهم؛ إذ كيف يعتقدونَ أنَّ اللّه هو ربُّ هذا البيت ويعبدونَ غيرَهُ؟! فيكونُ قوله: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ بمثابةِ الدّليلِ على أنَّ المُستحِقَّ للعِبادة هو اللّه تعالى الَّذي هو ربُّ هذا البَيت.

تَوالي التَّعيينات والمـشـخِّـصـات لـلـدّلالـة على الانحصارِ بـرَبِّ البريّات

علّة التّعبيرِ بالاسم المَوصولِ دون الظّاهر:

عبَّرَ النّظمُ الكريمُ بعدَ التَّركيبِ الإضافيِّ بالاسمِ الموصول النّاعت للرّبِّ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم﴾؛ للدّلالة على أنَّ استحقاقَه لرُبوبيّة هذا البيت لكونِه مُطعِمًا لهم مِن جوعٍ ومُؤمِنًا لهم من خوفٍ، فيكونُ الاسم الموصولُ نعتًا كاشفًا عن الرَّبِّ المُستحِقِّ للعِبادة، وإنَّما آثرَ النَّظمُ النَّعتَ بالموصولِ؛ للدّلالةِ على الذّات الموضَّحة بجملةِ الصِّلة، الَّتي تدلُّ على تعليلِ الأمرِ بالعِبادة، فيكون

الإيـــــلافُ والإطـــعـــام، علّتانِ لعِبادة المَلِك العلّام

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 561.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 561.

النّعت بالموصوليّة علّةً للأمرِ بالعبادة، كما كان الإيلافُ علّةً للأمرِ بها، وبهذا أدركنا سرَّ توسيطِ النَّظمِ الأمرَ بالعبادةِ؛ ليكونَ ما قبلَه من الإيلاف سَبَبًا وما بعدهُ من الإطعام والأمنِ سببًا آخر.

نكتة التّعبير بمفردة (الإطعامِ):

الإطعامُ نعمةٌ جليلة تستحِقُّ العِبادة الجليلة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (الإطعام) ماضيًا مَزيدًا بالهمزةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾؛ للدّلالة على تحقُّقِ الإطعام وصُدوره على سبيل القطعِ بالحُصول، كما دلّتِ (الهمزةُ) على التَّعديةِ المُفيدة للتَّفضُّل والمنِّ بتوفيرِ الطَّعام للجائعين، وتلك نعمةٌ ظاهرةٌ تدلُّ على انحصارِ الرُّبوبيَّة بالله تعالى دونَ الأصنامِ الَّتي لا تملكُ إطعامَ نفسِها فضْلًا عن إطعامِ غيرها، كما دلَّ الإطعام بمادّتِه على حصولِ الطَّعم والتَّذوُّقِ لهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الرِّحلتين تجلبانِ معَها ألوانَ الأطعمة المختلفةِ بحيثُ يُدركونها بالطّعم والتَّذوُّقِ لصنوفِها وأشكالِها، وهي تُشير إلى دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126].

نوعُ (مِنْ) ودلالتها:

تنحيةُ الجوعِ والخَوف تُضفي مَزيدًا من اللَّومِ والتَّبكيت

تحتمل (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفٍ﴾؛ البدليَّة، أي: أطْعَمَهُمْ بَدَلًا مِنَ الجوعِ، وآمَنَهُمْ بَدَلًا مِنَ الخَوْفِ، ومَعْنَى البَدَليَّة: هوَ أنَّ حالَةَ بلادِهِمْ تَقْتَضي أنْ يَكونَ أهْلُها في جوعٍ، فإطْعامُهُمْ بَدَلٌ مِنَ الجوعِ الَّذي تَقْتَضيهِ البِلادُ، وأنَّ حالَتَهُمْ في قِلَّةِ العَدَدِ وكَوْنِهِمْ أهْلَ حَضَرٍ تَقْتَضي أنْ يَكونوا مُعَرَّضينَ لِغاراتِ القَبائِلِ، فجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الأمْنَ في الحَرَمِ عِوَضًا عَنِ الخَوْفِ الَّذي تَقْتَضيهِ قِلَّتُهُمْ"[1]، وتحتمل التَّعليليَّة، أي: إطعامًا من أجل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 561.

جوعٍ شديدٍ[1]، واحتُمل أن تكون بمَعنى (عَن)، أي: أطعَمَهم بعدَ جوعٍ[2]، وعبّرَ بمِن لأنَّها اقتضت المنعَ مِن لَحاق الجوع، أي: أطعمَهم فلم يَلحقْهم جوعٌ[3]، ولأنَّ استعمال (عن) "يَقْتَضي أنْ يَكونَ ذَلِكَ التَّبْعيدُ مَسْبوقًا بمُقاساةِ الجوعِ زَمانًا، ثُمَّ يَصْرِفُهُ عَنْهُ، و(مِنْ) لا تَقْتَضي ذلك، بل معناهُ أنَّهم عندَما يَجوعونَ يُطْعَمونَ، وحينَما يَخافونَ يُؤَمَّنونَ"[4].

غرض تنكيرِ لفظي ﴿جُوعٍ﴾ و﴿خَوْفٍ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿جُوعٍ﴾ و﴿خَوْفٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾؛ فمَن ذهبَ إلى وقوعِ الجوع والخوف لقريشٍ رأى أنَّ التَّنكيرَ للتَّعظيم، ومَن ذهبَ إلى عدمِ وقوعِ الجوع والخوف أصلًا قرّرَ أنَّ التَّنكيرَ للنّوعيَّة[5].

تعيين أغراض التّنكير بحسب التّفسير والبيان

والّذي يَبدو إمكانيّةَ كونِ التَّنكيرِ للتَّعظيم وإنْ لم يقَعْ فيهم أصلًا؛ إذ الجوعُ الشَّديد والخوفُ العظيمُ تقتضيهِ حالةُ بلادِهم وحالهم.

مناسبة العطفِ بالواو:

عَطَفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ بين الإطعام والأمان؛ للدّلالة على الجمعِ والاقترانِ بينَهما؛ لوجودِ الجامعِ العقليِّ بينهما؛ لاتّحادِ الفاعل، وكونِ كلٍّ منهُما من قبيلِ الإنعام، وحسَّنَ الوصلَ التَّناسُبُ في الفعليَّة، فلمّا "ذكرَ السّببَ في إقامةِ الظّاهر ذكرَ السّببَ في إقامةِ العَيش بنعمةِ الباطنِ فقال: ﴿وَءَامَنَهُم﴾"[6].

مِـن مُحسّنات الوَصْل التّناسُبُ بـين الـظّـاهـر والباطن

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 447.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 24/ 350.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 448.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 300.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 561.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 267.

فائدة التَّعبير بفعلِ (الإيمان) مادّة وصيغةً:

إيقاع فعل الإيمان على قريش بالكلّيّة أفاد الإحاطة والمكّنة

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمال فعلِ (الإيمان) ماضيًا مَزيدًا بالهَمزة في قولِه تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾؛ للدّلالة على تحقُّقِ وقوعِ الأمن لهم، وأنَّه مقطوعُ الحصول لكونِه ماضيًا، وأفادَتِ الهمزةُ التَّعديةَ؛ للتَّعريضِ بأصنامِهم الَّتي لا تُحقِّقُ الأمنَ لنفسِها فضْلًا عن غيرها، كما أفادتْ مادّةُ الإيمان زوالَ الخَوفِ وذهابَهُ بالكلّيّة، لا سيما أنَّه أوقع الفعل عليهم بالكلّيّة.

التَّناسُبُ بينَ المَصدرينِ والفِعلينِ:

التَّوافُقُ الصّوتيّ والتَّناسُبُ المعنويّ في سَرْدِ النّعمِ

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ في صَدْرِ السّورة بمَصدرَي بابِ (الإفعال) في قولِه تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾، ليختتِمَ السّورةَ بفِعلَي بابِ (الإفعال) في قولِه: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾؛ فيتحقّقُ الانسجامُ والتَّناسُبُ بينَ الإيلافَين، وبينَ الإطعامِ والإيمان، ممّا يولِّدُ حالةً من التَّوافُقِ الصّوتيِّ والانسجامِ الإيقاعيِّ، وإيرادُ (الإيلاف) بالمَصدرِ اسمًا لدلالتِه على الدّوام والاعتياد، و(الإطعام والإيمان) فِعلينِ لدلالتِهما على حُدوثِ النِّعمة وتجدُّدِها بعدَ عدَمٍ.

بلاغة التَّناسُبِ في فنِّ الطِّباق:

مَن ألهمَ النّاسَ الرِّحلة يُلهِمُهم الهِدايةَ والنّقْلة

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بأسلوبِ (الطّباق) في قولِه تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾؛ إذ قابلَ بينَ (الإطعام والجوع) من جهةٍ، وبينَ (الأمن والخوف) من جهةٍ أُخرى، والغرضُ من هذا الصَّنيع بيانُ أثرِ القُدرة على فعلِ المتضادّات، والانتقال من حالةٍ مُزريَةٍ إلى حالةٍ عالية، ومَن كان هذا فعلَه فإنّه قادرٌ على أنْ ينقُلَ الإنسان من الكُفر إلى الإيمان ومنَ الجُحود إلى الإيقان، وهذا الانتقالُ من حالةٍ إلى حالةٍ يُناسبُ الانتقالَ المعبَّر عنه برحلتَي (الشّتاءِ والصَّيف).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَوْفُ والحَذَرُ والرَّهبةُ والفَزَعُ:

الخَوْفُ توقّعُ الضَّرر المَشكوكِ في وُقوعِه، ومَن يَتيقّنُ الضَّرر لم يكُن خائفًا له، وكذا كلُّ الرَّجاء لا يكونُ إلّا معَ الشَّكِّ، ومَن تيقّنَ النّفعَ لا يكونُ راجيًا له، والحَذَرُ تَوَقّي الضَّررِ سواءٌ كانَ مَظنونًا أوْ مُتيقّنًا، والحذَرُ يدفَعُ الضَّررَ، والرَّهبةُ طولُ الخَوْفِ واستمرارُهُ، ومِن ثمَّ قيلَ للرّاهب: راهبٌ؛ لأنّهُ يُديمُ الخوفَ، والفَزَعُ مُفاجأةُ الخَوف عندَ هُجومِ أمرٍ، وهو انزعاجُ القلبِ بتوقُّعِ مكروهٍ عاجِلٍ؛ فالخوفُ توقُّعُ ضَرَرٍ مَشكوكٍ والظَّنُّ بوقوعِه، وإذا أراد التَّوقّيَ منهُ يقالُ في هذا المقام: الحَذر، وإذا أدامَ الخوفَ واستمرّ فهو الرّهبُ، وإذا حصلَ الخوفُ وأثرُه مُفاجأةً ولم يَتحمّل بهِ وانزعَجَ قلبُهُ فهو الفَزِعُ[1]، ولذا عبّرَ النّظمُ به في قولِه تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 4]؛ لأنَّ الأمنَ لأهلِ مكّة لم يكُنْ عن خوفٍ فعليٍّ واقعٍ، بل مجرّدُ التَّوقّع؛ لتخطُّف النّاسِ مِن حَولهم.

الخَـوْفُ تـوقُّـعُ الضّـرر والـحَـذَرُ اتّـخـاذ الـوقـايـة والـرّهـبـةُ دوامُ الخوف والـفَـزَعُ مُفاجَأتُه

الرِّحلةُ والسّفَرُ:

الرِّحلةُ الخُروجُ في سَفَرٍ مع أسبابٍ ووسائلَ لا مُطلقًا، وهذا القيدُ لازمٌ أنْ يُلاحظَ في جميعِ صيغِها ومَواردِ استعمالها، والسّفَرُ الخروجُ إلى مَسافةٍ بعيدةٍ حتّى يبعُدَ عن مُحيطِ بلدِه، وينكشفَ لهُ محيطٌ آخَرُ، ولذا عبَّر النَّظمُ عن تجارة قُريشٍ الشِّتائيَّة والصَّيفيَّة في قولِه تعالى: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ بالرِّحلةِ دون السّفَر؛ لأنَّهم كانوا يَتّجرونَ ويُحوّلونَ الأمتعةَ ويَبيعونَها ويأخذونَ أجناسًا أُخَر مُناسبة[2].

الرِّحلة مُختصّةٌ بـالـوَسـائـل والسَّفرُ الخُروجُ البَعيد

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن 3/ 139، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات: (خوف).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 86.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والستون،
من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 68 ، 828 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-42-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 68 : المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-42-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7916426 بتاريخ 2026/01/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"